مظاهر العبقـــــرية
في الحضارة الاسلامية

للاستاذ خليل جمعة الطوال

— ١ —

لقد امتدت عداوة المناوئين للاسلام إلى حد النيل من حضارته والطعن فى مدنيته وانتقاص أمره وكل ما من شأنه أن يتصل به ؛ وليس أهون على المتحامل من أن يطعن وينال بغير روية ولا تدبر ، ذلك لأن سبيلهما جد ميسورة ، ومؤنة امتهانهما أيسر ، ومن المؤسف حقاً أن تبلغ العداوة للاسلام بالأوروبيين حد الإجحاف بالحق ، والجناية على العلم والتاريخ ؛ ولئن جاز لرجال السياسة أن يتساقوا لتيار أهوائهم وأن يبنوا أحكامهم على قاعدة أغراضهم ومصالح قومياتهم ، فما أحسب هذه السبيل مشروعة فى كتابة البحوث العلمية ؛ ذلك لأن العلم لا يدخل ألبتة فى حساب الأهواء والقوميات ، بل هو أمر مقدس فوق جميع هذه الاعتبارات يزكو بالنزاهة ، ويزهو بالأمانة له ، وهو فوق ذلك ملك مشاع بين جميع الأمم ؛ لا فضل لهذه على تلك فيه إلا بمقدار ما أسدت له من الخدمات ، وأودعت فى كنوزه من الاكتشافات والإختراعات .

وإنه لمن الجناية الكبرى على العلم ، أن تقوم فى طبقة العلماء فئة لم تحرر بعد من قيود المنازع ، وأغلال الأهواء ؛ ولا عرفت قط قيمة النزاهة العلمية والأمانة التاريخية ؛ فتحاول جهدها باسم العلم أن تبخس الإسلام فضله على المدنية ، وأن تطمس من سجل الحضارة صفحة مشرقة تشهد بجلالها وروعتها جميع تواريخهم وأدوات حضارتهم ؛ فمن هذه الأحكام الجائرة التى يبرأ منها الإنصاف ويعجها العلم وتلفظها الحقيقة ، ما جاء عن «أنديره سرفيه» إذ يقول : « لم يكن الإسلام شعلة ، بل مطفأة نشأ من قلب متوحش ، لأمة متوحشة ، فكان ولا يزال عاجزا عن أن يساير الزمن ويجارى التمدن ، ولقد أثبت فى كل بقعة ارتفعت فيها أعلامه أنه وقف صخرة ناشزة فى سبيل التقدم ، وأنه خنق نشوء المجتمع الإنسانى ،[1]» وفى كتب المغرضين الشىء الكثير من هذه الحملات الطائشة والأحكام الفئة الجائرة التى لا يدعمها دليل ولا تدمغها حجة .

لم يقف « سرفيه » عند هذا الحد من التحامل بل راح يقول أيضاً « وإن المدنية الإسلامية أقل من أن يعتنى بدراستها إذ هى تقليد مشوه لمدنيتى اليونان والرومان سقط العرب على مادتها فى الكتب السريانية فاقتبسوها دون أن يعرضوا لها بما يستحق الذكر من النقد ، لأن العربى قد أثبت أن لا قابلية له على استقصاء البحث بصورة جدية ، وأن لا قدرة له ألبتة على إبداع شىء من عنده ، ولم يتقن العرب من العلوم إلا التى لا تحتاج إلى عناء فى التفكير ، أو بشقة فى البحث ، وكانت سبيلها جد سهلة وميسورة كالتاريخ والجغرافيا وما إليهما الخ .. » وأمثال « سرفيه » فى التشيع والتغرض كثيرون ، وتكاد رفوف المكاتب تنوء بتحمل مثل هذه البحوث السخيفة والحملات الطائشة ، ومن المؤلم حقاً أن نسكت عنها ، ونتام عليها كأنها حقائق واقعة لا غبار عليها .

على أن تهاوننا فى دراسة حضارتنا ونشر فضائلها وعرض روائعها للعيان ، لأشد إجحافاً بحقها ، وضرراً لها من حملات الأعداء عليها وطعنهم بها ، فالعلص لا يقتحم غير البيت المهجور ومن واجب صاحب البيت أن يعمل على صيانة بيته ، وأن يقيه شر العدو . وإننا سنتقدم فى هذا البحث الموجز بإماطة اللثام عن مواطن العبقرية فى حضارتنا ، ثم نأخذ بتفنيد مطاعن الطاعنين فيها بالطريقة الهادئة التى رسمناها لأنفسنا منذ أن اضطلعنا بعبء دحض مفتريات الخصوم وحملات المتحاملين .

انحلال الحضارة الغربية قبيل الاسلام :

تسرب الضعف والوهن إلى قلب الامبراطورية الرومانية العظيمة رويداً رويداً ، وما كاد يتم القرن الخامس للميلاد حتى لفظت هذه الامبراطورية الواسعة أنفاسها ، وأصبحت رقعتها نهباً مباحاً للقبائل البربرية التى كانت تحيط بها ، وتناجزها القتال ، وتشن الغارة عليها بين الفينة والأخرى ، وهكذا أصبحت قبائل القوط والوندال والسكلت والهون ، والمغول ، والسكسونيين تتصرف بشؤون أعظم

(١) الاسلام وخطة العلم ص ٤ لأنديره سرفيه

أمبراطورية عرفها التاريخ ، وكانت هذه القبائل فى الدرك الأسفل من الثقافة ، لاحظ لها قط من أسباب المدنية والعمران ، فقوضت بهمجيتها سرادق تلك الحضارة الرومانية العريقة ، وأصبحت معالمها نسياً منسياً ، واجتازت أوروبا هبة من الزمن كانت تتخبط فيها فى دياجير الانحطاط على غير هدى ، فساد الجهل ، وانتشرت الفوضى ومنيت العقول بالعقم والجدب ، وشل التفكير شلا سريعاً ، ولئن كانت المسيحية إذ ذاك فى عهد انتشارها وازدهارها ، وفى شباب قوتها بحيث استطاعت أن تصمد أمام هذه القبائل المتبربرة المتوحشة ، إلا أن نكبة المدنية بها لم تكن أهون من نكبتها بتلك الشراذم المنحطة ، ذلك لأنها كانت تخشى على عقائدها وتعاليمها من أن تتسرب إليها مشارط الحرية الفكرية فتفسدها ، ولذلك بادرت إلى تقييد الأفكار ، وحجر العقول ، حتى لا تكاد تبض بقطرة من العلم ، وكانت تعاقب على كل نظرية جديدة تصدر عن غير رجال الدين ، ويعلن هؤلاء استنكارهم لها آناً بالموت حرقاً وشنقاً ، وحيناً بالتنكيل سجناً وجلداً ... (١)

وكان من نتيجة هذا الحجر على الأفكار وهذا الجهل المطبق أن عم البلاء ، وانتشرت الأوباء ، وأخذ الطاعون يحصد النفوس حصداً ذريعاً .

قال أرديكوس فيتالس أحد مؤرخى القساوسة : « ... عم بلاء المرضى فقضى بأهل بيوت كثيرة ، كما أن الجوع قد أفنى المرضى ؛ فلما أن خربت النيران الأرض ، خرج الأكثرون هائمين على وجوههم ، فلما رأوا أن الأبرشيات قد طمست معالمها ودرست آثارها ، فروا من الكنائس الخاوية هربا إلى حيث لا يعلمون (٢) ...

وقيل : « وقد بلغ من سوء الحالة إذ ذاك أن كان الناس يتكالبون على أكل لحم الميتة وإن أنتنت ، ينبشونها من تحت التراب ، ويطلبونها من على المزابل ... لا يسألون عما تسببه من الأذى وتحمله من الموت ، وكانوا يستشفون من أمراضهم ببول البهائم وبالتمائم والتعاويذ والتعزيم » ... (٣)

وقيل أيضاً : « وكان الطباشير يطلب من الأرض ويمزج بالدقيق ، ليصنع خبزاً ، لقد اصفرت وجوههم وانحطت قواهم حتى لقد عجزوا عن أن يجروا أنفسهم من فوق الأرض جراً وهيئت حفر ليسحب إليها المحتفرون ويلقون فى جوفها . وكانت هذه المصائب تلابسها مصائب أكبر ، وكوارث أعظم . فان الذئاب وقد أنسوا على جوانب الطرق كثيراً من الجثث ملكتها الشجاعة وأغواهم ضعف الناس فراحوا بها جون الأحياء ، أما مواد الطعام فقد خص بها الأقوياء ليظلوا قادرين على العمل لعل الحقول تزرع ولا تبور ... (١)

وظلت أوروبا تائهة فى ظلام الجهالة : إلى ما بعد القرن العاشر ، تنغص بالغابات المخيفة التى تقطنها جماعات الوحوش ، وأسراب الطيور الكاسرة « وتنبعث (٢) من المستنقعات الكثيرة فى أرباض المدن روائح قتالة ، تجتاح الناس وتحصدهم ، وكانت البيوت فى باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مونقة ، وكانت البسط مجهولة عندهم ، لا بساط لهم غير القش ينثرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويطرحون أحشاء الحيوانات وخثى البهائم وأقذار المطابخ فى ساحات بيوتهم فتتصاعد منها روائح مؤذية ، وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال ، وبعض الحيوانات الداجنة ، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف القذر يقوم مقام الوسادة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح . قال درابر : وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة بين الناس ، وساورتهم الأوهام ، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب ، وانتشرت أحابيل الدجالين ، وكلما دهم البلاد مرض هرع رجال الدين إلى الصلاة ، وأغفلوا أمر النظافة كرها لها ، وكانت الأوبئة تفتك بهم فتكاً ذريعاً .

وإلى جانب هذا الفقر والانحطاط فقد انتشرت الفوضى ، واضطرب حبل الأمن ، وسادت اللصوصية ، وكثيراً ما كان

(١) Gibbon : the Rise and Fall of the Roman Empire

(٢) مجد العرب والاسلام : بحث لاسماعيل مظهر

(٣) المجلة الأسيوية : تصدرها جماعة المستشرقين

(١) الرسالة : عدد ٢٤٧

(٢) : التاريخ العام : للافيس ورنيو . و (الحضارة العربية) ج ١ — لكرد على .

يخطف السائر وينهب وهو ذاهب إلى بيته أو عمله ولو كان فى رائعة النهار .

تلكم هى مدنية أوروبا قبل العصر الحاضر ، وتلكم هى حالة الشعوب الغربية يوم كان الإسلام هو المدرسة الوحيدة التى تهذب فيها الفكر الإنسانى ، وانبثقت منها أنوار الحضارة والمدنية.

جاء النبى صلى الله عليه وسلم، والغرب لا يرى النور إلا من سم[1] الخياط ، وأما الجزيرة العربية فلم تكن بأحسن منه حالاً إذ كانت فى جاهلية جهلاء ، يفترس القوى فيها الضعيف ، ويعبد الناس مظاهر الطبيعة ، ويقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويئدون بناتهم بلا رحمة ، وما إن أظهر الله دينه على سائر الأديان حتى أخذ ينشر فى الناس روح العلم والمدنية « تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة : ودراسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله[2] قربة ، وبعد أن لم يكن فى الجزيرة سوى بضعة عشر رجلا يحسنون القراءة والكتابة ، فقد أصبحت فيما بعد مثابة العلم[3] وموئل المدنية ، ومورد الحضارة .

لقد كان العلم أول ما فرضه النبى على المؤمنين بعد نبذ الشرك ، وقد حثهم على طلبه ولو فى الصين ، وأمر به الله فى كتابه العزيز « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ومما يؤثر عن النبى فى ذلك قوله « مداد العلماء أزكى من دم الشهداء » وبلغ من حبه للعلم وحثه على طلبه أن قال « أنا مدينة العلم وعلى بابها » .[4]

صبأ الحضارة الإسلامية :

لقد أعلن الله رسالته ، فأقبل الناس يدينون بها أفواجاً أفواجاً ، ثم مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس فى الجزيرة بأسرها إلا توحيد فلج الشرك ، وإيمان زعزع الأصنام ، فتوجه خلفاؤه الصالحون من بعده برسالته صوب بقية أقطار العالم الأخرى ، ينشرونها بين شعوبها المتفككة ، فيتسابق الناس للاحتماء بها هرباً من عسف تلك الدول الغاشمة التى كانت ترزح لسلطانها ، وتئن تحت نيرها ، وما هى إلا عشرات من السنين إلا وشريعة ذلك اليتيم المسكين هى الشريعة السائدة فى الكون والمسيطرة على العالم ، وإلا صوت التهليل والتكبير قد أخذ يدوى فى أرجاء إسبانيا من على سطوح الكنائس التى كانت فيما مضى مركزاً للفرضى ، وبؤرة للأوباء ، وكان أول ما فرضه المسلمون على العالم إلى جانب ديانتهم هى لغتهم العربية ، التى بها لا بغيرها نزلت رسالة الله على نبيه ، فقد أملوها على جميع الأمم التى رضخت لسلطانهم ، وخضعت لدولتهم ، وقد بلغ من سعة امتدادها ، وسرعة انتشارها[1] أن أصبحت بين العالم فى مكان اللغة اللاتينية القديمة ، أى لغة العلم الوحيدة ، ولسان المتعلمين ، وبلغ من تفوقها أيضاً أن صارت هى الواسطة الوحيدة لكل من أراد أن يلمّ بنواحى الثقافتين اليونانية والرومانية ، أو يطلع على أحدث العلوم والآراء العصرية .

العربية لغة عالمية :

جاء فى تاريخ اللغات السامية لرينان : « ليس فى تاريخ العالم ما هو أدعى إلى التعجب من سرعة انتشار اللغة العربية ، فقد كانت فى بدء أمرها لغة خاملة الذكر ، فاذا بها تظهر فجأة على مسرح الحضارة والمدنية وارثة للغة اللاتينية القديمة ، وإذا بها لغة فى غاية السلاسة والغنى ، كاملة بحيث لم تعرف منذ ذلك العهد أى تغيير أو تعديل . وقد ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ، فليس لها طفولة : ولا هرم . ولست أعلم هل وقع مثل ذلك لأية لغة أخرى فى العالم دون أن تجتاز قبل ذلك أدواراً مختلفة ، فإن العربية ولا شك قد عمت أكبر أجزاء المعمورة ، ولم ينازعها فى مكانتها من حيث كونها لغة عامة عالية إلا لغتان : اللاتينية واليونانية . ومع ذلك فقد تطرقت إلى أقطار نائية ولم تصل إليها هاتان اللغتان قط »

وجاء فى خطط الشام لمحمد كرد على[2] « بذت العربية فى الإسلام اللغة الفارسية والسريانية فى العراق وفارس ، والرومية ، والسريانية فى الشام ، والقبطية والرومية فى مصر ، واللاتينية فى شمال أفريقيا ، ولم يمض سبعون سنة حتى أصبحت العربية اللغة العامة فى هذه الأقطار ...

(يتبع) خليل جمعة الطوال

(١) دوزى : تاريخ المسلمين و أسبانيا .
(٢) Sayed Ameer Ali The Spirit of ISLAM
(٣) : الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على
(٤) الجامع الكبير

(١) : العلوم والعمران فى الأعصر الوسطى : لجورج سارطون .
(٢) خطط الشام ج ١ ، الاسلام والحضارة العربية .